الوأواء الدمشقي

الدكتور رفيق جويجاتي

تواجه الناقد الأدبي في الحديث عن الوأواء الدمشقي وأمثاله من بعض الشعراء العرب ، سواء في الجاهليّة أو في العصرين الأمويّ والعبّاسي ، ندرةُ المعلومات الموثقة عن حياتهم وتطوّر فنّهم . وإذا أوردت المصادر – على قلّتها – بعض التفصيل عن أنسابهم وانتمائهم القبلي والمذهبي ، وأحكام جدّ مبتسرة في معرض النقد الأدبي ، فإنّها لا تقدّم مدىً من الرؤية متناسقاً متكاملاً للأحداث التي بلاها الشاعر ، أو التجارب التي خاض غمارها ، مع أنّه قد يكون لهذه وتلك الأثر الكبير في تكوين شاعريته والتعرّف على مصادر إلهامه . تلك ثغرة يجهد النقد المعاصر في سدّها .

وقد أتاح التقدّم الكبير الذي شهده علم اللسانيات في عصرنا ، لبعض نظريّات الأدب ، والأدب المقارَن على الأخصّ ، أن تدعو إلىٰ نقد فني خالص ، موقوف على النّصوص ، دون النظر إلىٰ العنصر الشخصي SUBJECTIVE أو عامل العصر والمكان . وقد يساعد ذلك على إحياء تراث شاعر لم يُعرَف القدر الكافي من سيرته . إلاّ أنّ من الثابت أنّ بين الشعر ومعاناة الشاعر صلة حميمة ؛ وحتّىٰ شعراء الصوفيّة الذين يترفّعون عن هموم الدنيا ويسبحون في الإلهيّات ونواميس ما بعد الطبيعة ، لن يمكن إدراك اتجاهات لغتهم الروحية ، بمعزل عن تيّارات العصر الذي هم أبناؤه وورثته . كلا ! ولا شعراء الرمز أو التجريد يمكن فهم دوافعهم دون الوقوف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على البواعث النفسية والفكرية والاجتماعية التي قادتهم إلىٰ التمرّد على الأصول المرعيّة .

فيضطرّ الناقد والحالة هذه ، إلىٰ سلوك طريق وسط ، يُنعم النظر في النصّ ، فيما يستعين بمكتشفات علم النفس – وقد كاد يبلغ مرتبة العلوم الدقيقة SCIENCES EXACTES – على تلافي النقص في المعلومات عن سيرة الشاعر ،لينفذ إلىٰ ينبوع منهله الشعري .

أمّا بالنسبة لشاعرنا ، فقد كان للجهد المعاصر ، وعلى الأخصّ على يد المستشرق الروسي ، أغناطيوس كراتشكوفسكي في مطلع هذا القرن ومن بعد على يد فقيدينا ، الشاعر الكبير خليل مردم بك ؛ ثمّ بعد ذلك الأديب الناقد الدكتور سامي الدهان ، في مطلع النصف الثاني للقرن ، الأثر البارز في تحقيق ديوانه ، فلهم الامتنان . – وإنّما أقول ما وصل من الديوان ، فالظّن أنّ ما فقد من شعر الوأواء أكثر بكثير ممّا وصل إلينا – ، كما جاء جهدهم يجلو بعض الشيء العوامل التي أطلقت شاعريته ؛ وكانت ملاحظات عضو المجمع العلمي العربي آنذاك الفقيد الأستاذ عارف النكدي في هذا الصدد على صفحات مجلة المجمع ملاحظات قيّمة في محلّها . ومع ذلك ظلّ هناك فراغ كبير لا يجد الباحث معه بداً من اللجوء إلىٰ أدوات علم النفس والأخلاقيات الاجتماعية SOCIAL ETHICS وفن النقد المعاصر ، حتىٰ يصل إلىٰ رسم صورة يستقرئها استقراءاً للشاعر ، أقرب إلىٰ الاحتمال منها إلىٰ التوثيق الدقيق ؛ وتعتمد في بعض الأبحاث على تخيّر مواقف للشاعر ومشاهد في حياته ، يمكن اتخاذها نماذج تصلح للكشف عن تطوّر شعره وفكره وفنّه .

أمّا بعد ، فذلكم فتىً في زمانه من أبناء هذا القرن الرابع الهجري ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الذي سجّل في صفحات التاريخ العربي والحضارة الإنسانيّة صفحات خالدة في نهضة العلوم والفنون والآداب ، نقلت الحضارة العربيّة من مرحلتي التلقّي والتمثّل إلىٰ حيّز الإنتاج المبدع ؛ حتىٰ ليدين له عصر النهضة الأوربّية La RENAISSANCE بالكثير الكثير من الاقتباس .

ذلك قرن يقترن في أذهاننا بذكر أعلام كالمتنبي والمعرّي وابن سينا وابن رشد ، وابن زيدون والفارابي ؛ وإن كان يقترن أيضا بمأساة بدء التفكّك في الخلافة العباسية وقيام دويلات مستقلة في أرجاء الامبراطورية العربية العديدة المترامية الأطراف لا ترتبط بالخلافة إلا بالرمز .

وكان الإخشيديون والحمدانيون ، والقرامطة ، والفاطميّون والمغاربة والروم ، يتنازعون السيطرة على دمشق وما حولها ، ويحمل هذا التنازع للمدينة الأسيرة الصابرة المصائب والأهوال .

* * *

في المكان ، شاعرنا من أبناء دمشق ، هذه التي كانت قبل ثلاثة قرون عاصمة الخلافة الأموية ، ثمّ انتقل مركز الثقل منها إلىٰ بغداد ، وعَرَتْها الخطوب تلو الخطوب فكانت تخرج منها في كل مرة ، كليمة متحسّرة ، دون أن تفقد مع ذلك ومهما اشتدّت عليها البلوىٰ ، الأمل في النهوض من العثار ؛ بل كان أهلوها يخرجون من كلّ محنة وقد صقلتهم الآلام وجعلتهم كبار النفوس ، فزادوا استمساكاً بقدسيّة التراب والمحافظة على التراث ، وأداء الرسالة ، مع التكيّف الكيّس مع ما يأتي به الزمن من أفراح وأتراح .

على أنّ دمشق ظلّت مدينة الإشعاع ، تعبُر عبقرياتها التخوم والبحار ، لتنشر رسالتها بهمم قوّادها وعلمائها وأدبائها الهاربين من غدر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأعداء ، وكيد الموالي ، وظلم الأقارب ؛ رسالتها في التوحيد وإقامة العدل ، وإعمار الأرض ونشر الحضارة ؛ تتبلور على الأخصّ في إشادة معجزة الأندلس ، فيصل هذا الإشعاع إلىٰ أواسط أوربا بعد ما توسّع في القارّة الآسيوية وشمال القارة الافريقيّة .

* * *

فلندخل الآن في باكورة حياة شاعرنا ، في المشهد المتخيّر الأوّل ولنلاحظ من فورنا أنّ هذا الفتىٰ الغضّ العود ، محمد بن أحمد المنتسب إلىٰ غسّان ، والملقّب بأبي الفرج ، لم يكن ليعي بعد هذه الأبعاد التاريخيّة لمنبته ، يحجبه عن هذا الوعي ، فقدان التوعية في محيطه الضيّق ، وهشاشة التربية البيتيّة ، والاكتفاء بالنزر القليل من دروس الكُتّاب ، وعدم ارتياد المدرسة ، لا لتسيّب في رعاية الوالدين ، بل لاستئثار الهموم المعاشية بجلّ اهتمامهما . فلا يستقيم للفتىٰ عودٌ نوعاً ، حتّىٰ يزجّه أبوه في خضمّ الحياة ، في هذه السّنّ المبكّرة ، عسىٰ أن يدرّ جهده العضلي – على نعومته – أجراً يسدّ به رمقاً أو يدفع غائلة .

ينزل فتانا أبو الفرج من الحارة الضيّقة – وهي على الأغلب حارة ضيّقة من حارات الحيّ المسمّىٰ اليوم : « بين السورين » في المدينة القديمة قرب باب البريد – ينزل إلىٰ ساحة المدينة الصاخبة ؛ يتلقّف بغريزة الفطنة وحدّة الانتباه ، أيّة فرصة تعرض للتكسّب ؛ وإذ يلحظ في نُزُل القادمين من السفر – ومكانه على الأغلب كما تشير القرائن فيما سمّاه جيلنا « جوزة الحدباء » من أحد مفارق سوق ساروجه هابطا نحو ماسُمي فيما بعد ساحة المرجة – إذ يلحظ ما يتكبّد الضيف الوافد من عناء في نقل متاعه من على ظهر الدابة إلىٰ ردهة الفندق ، يُهرع إلىٰ التطوّع بالمؤازرة في نقل الحِمْل ؛

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وحين يلاقي مع التكرار رضىً من القائمين على النُزُل وروّاده ، يروّض نفسه على طلب أجر – ولو على استحياء – أجرٍ يكسو كلمات الشكر والدعاء التي تُكالُ له بعداً مادياً ملموساً – ولو كان ضئيلاً .

ثمّ يتولّد من هذا الأخذ والعطاء ، والتعامل بالتراضي ، ما بين محيط النُزُل إدارةً وعمّالاً ومقيمين وروّاداً ، وبين أبي الفرج الناشط الطيّب السريرة ، نوع من الثقة المتبادلة تشجّع إدارة الفندق على أن تعرض عليه أن يكون جابياً ومراسلاً للنُزُل، يحصّل ما له من ذمم على روّاده، ويفي ما عليه من ذمم للنّاس ، ويحمل إليه ما يلزم من مؤن . فتتكوّن له خبرة في السوق والتعامل مع النّاس ، ويتنامىٰ حسّه بشخصيّة تميّزه ، وبدور يؤدّيه ؛ ويغري به هذا التنامي في الخبرة أن يسعىٰ لتوسيع الرزق المقتّر وتنويع نواحي النشاط . لِمَ لا يستأجر زاوية قرب الفندق في « دار البطيخ » – وهي على ما حققه الأستاذ حبيب الزيّات في مجلة المشرق سنة ١٩٢٩ – تقع في موضع السوق الذي أطلق عليه جيلنا ، وربما الأجيال التي سبقته اسم « سوق علي باشا » ، ويذكر من عرفوا هذا السّوق ، ممن هم في سنّ العبد الفقير ، كيف كان يمتلئ بأطايب الفاكهة المتنوعة والحلوىٰ التي كانت تعرض فيه وأفانين العطور التي تنشر فيه العبير فيبيع أبو الفرج – من الفاكهة التي يقتنيها – والبطيخ منها على الأخصّ ، و« يجتني أثمانها » – وهذا التعبير للقفطي في معرض كلامه الوجيز عن أبي الفرج .

* * *

المشهد الثاني – نضج الشخصية المبكّر

يلمس فتانا الحاجة للإعلان عن بضاعته والتشويق لها فيجرؤ على المناداة عليها ، ثم يشفع النداء بترديد مالها من محاسن في حلاوة الطعم ونقاء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اللبّ ؛ ثمّ يزيد تأنّقاً في إعلانه ، فيغنّيه غناءً بصوت رخيم . وقال الباخرزي في ذلك : « وأمّا أبو الفرج فقد كان يسعىٰ بالفواكه رائحاً وغادياً ويتغنّىٰ عليها منادياً » . وهو يغنّيه كما أنه يغنيه في مناداته بالوصف ، من خضرة القشرة السندسيّة ، إلىٰ حمرة اللبّ الرائق ، إلىٰ استدارة التركيب والأثر العذب في إطفاء الظمأ ، فيضيف إلىٰ حافز التكسّب ضرباً من الافتنان بإيقاع النغم ، وجمال الوصف ، وحسن الاستعارة ؛ وتكوّن هذه الممارسة لديه مع الزمن حصيلة من الشاعريّة ورهف الحسّ ينمو غراسها يوماً بعد يوم فتضفي على شخصيته بعداً إنسانيا خاصاً ، فهو بائع بطيخ لا شكّ ، لكنّه يتميّز لدىٰ الجمهور عن سائر الباعة ، ويحظىٰ بانتباهه وتفضيله ؛ فلم يعد هو « محمّد أبو الفرج » وحسب ، بل بائع البطيخ المتفرّد بوأوأته ، والوأوأة في اللغة عواء الكلب أو ابن آوىٰ متى اقترن بالنغم ؛ والوأواء من بني الإنسان من يرجّع في صياحه أنغام الطبيعة . وهكذا أصبح فتانا الوأواء بالتعريف لأنّه تفرّد بهذه الخصلة ، فغدا الوأواء الدمشقي على التحقيق ، يعرّف بموطنه ويعرّف موطنه ، فيما يعرف ، به ، فيسري عليه هذا اللقب طوال حياته ، ويكاد يُنسىٰ اسمه الأصلي .

المشهد الثالث – الإحساس بالشاعريّة

ما إخال الوأواء ، وقد تحصّلت له هذه الشهرة ، إلاّ وقد تدبّر في أمر نفسه ، أيصحّ أن يبقىٰ شبه أمّيّ ؛ وما إخاله إلاّ وكانت تصل إلىٰ مسامعه أصداء الشعر الذي كان في هذا العصر الخصب يسير على الأفواه : اجتماعيّات أبي الطيّب وبديعيات أبي تمّام ، محسّنات ابن الوليد وحكم أبي العلاء ، غزليّات أبي نواس وزهديّات أبي العتاهية ؛ وما إخاله إلاّ ويسائل نفسه ، لمَ قصّر عن أمثال له ، أغلبهم في الحرف اليدويّة ، كالسقّاء والخبّاز ، والرّفّاء والطبّاخ ، نظموا الشعر ووفقوا في نشره ، ولقبوا كشعراء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

باسم صنعتهم ، ولم يمنعهم ضيق ذات اليد من التعلّم والنظم ، بل لعل جهدهم الفكريّ عاد عليهم بالفائدة ، يسدّون بها الحاجة الملحاح . وما إخاله إلاّ وكانت تهتزّ نفسه لإيقاع الشعر ، فيتوق لحفظه وفقه معانيه ، لولا أنّ دون ذلك أهوالاً : تعلّم اللغة وقواعدها ، ودراسة الأدب والمنطق والعروض والبديع ، وإنضاج السليقة الشعريّة بالحفظ والممارسة ولقد أقدم آخر الأمر على هذه الخطوة الجريئة التي خطّت في طريقه منعطفاً حاسماً . فقسم الوقت بين صباح ومساء ، هذا للتعلّم وذاك للتكسّب ، يرتاد حلقات الدروس في المساجد وفي المدارس الطوعية وما أكثرها في هذا العصر الذي عُدّ فيه فتح المدرسة من الأعمال الصالحة اتّعاظاً بالحكمة القائلة : « من فتح مدرسة فكأنّه أغلق سجناً » لا سيّما وأنّ روّادها كانوا على الأغلب ممن لم تتح لهم فرص الدراسة النظاميّة ، وأنّ بقاءهم على الجهل قد يودي بهم إلىٰ مزالق الانحراف والجريمة .

ولعلّ أخصّ ما أفاد منه فتانا اليافع من هذا الارتياد ما ينسجه من لحمة بين المدرّسين والمتعلّمين وما بين المتعلمين أنفسهم من أواصر التعارف والتدارس أو التسابق ، وتشاطر السرّاء والضرّاء ، فتخرج أحاديث ندواتهم عن هموم المعيشة اليوميّة إلىٰ فسحة الحياة والثقافة والمجتمع ، مع تديّن غالب ، وتحلّل أحياناً من السلوك المحافظ ، متخفٍّ حيناً وحيناً يجرؤ على الظهور .

المشهد أو الموقف الرابع ـ البدايات الشعرية

يجدّ شابنا الآن في طلب العلم وتستوي عنده ملكة اللغة ويقبل على الحفظ من دواوين عمر بن أبي ربيعة وابن المعتزّ وأبي نواس تفضيلاً ، وأبي تمّام والبحتري لزوماً ، والمتنبي بسائق الإعجاب . ولا يجد بدّاً من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تقليص ساعات العمل ، فيكتفي بتزويد بعض البيوت بمؤنة الفاكهة ، محافظاً بذلك على القدر اليسير من مورد العيش . وفيما يتناقص مورده على هذا النحو يوماً بعد يوم يتزايد عبء الالتزامات الاجتماعيّة عليه ، بما ينشئه من صداقات وما يرنو إليه من تسلّق درجات التأدّب والمنزلة الاجتماعيّة المرموقة . فيظنّ المخرج من الضائقة بعرض أفضل وأكثر تنوّعاً لبضاعته ، يحمل لدور الصفوة من الأسر الدمشقيّة عيون الفاكهة والعطور والأزهار والشموع ، ويودع كلّ سلّة أو حزمة من هذه أو تلك بطاقة تحمل بدايات من شعره تناسب ما في الهديّة من محتوى :

فمع كومة من البطيخ يكتب على البطاقة :

وذاتِ ريق إن ترشّفته ... وجدته أحلى من المنّ
إذا بدت في كفّ جلاّبها ... رأيتها في غاية الحسن
كسلّة خضراء مختومة ... على الفصوص الحمر في القطن[1]

ومع باقة ورد يكتب :

يا حسنها من وردة ... بيضاء جاءت بالعجب
كجام بلّور به ... قُراضة من الذّهب[2]

وحين يزيّن بنرجسة وسط سلّة فواكه ، يكتب :

نرجسة باتت محدّقة ... لم تكتحل قطّ لذة الغمض
أمالَها القطر فهي باهتة ... تنظر فعل السّماء بالأرض[3]

ورويداً رويداً يضمّن هذه المقطوعات الصغيرة التزيينيّة ، تلميحات

(١) ديوان الوأواء الدمشقي : ٢٧٧
(٢) ديوان الوأواء : ٢٦١
(٣) ديوان الوأواء : ١٣٦ ـ ١٣٧

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

تنشئ صلة بين الوصف وبين العواطف الدفينة التي بدأت بالتحرّك .

فعندما يهدي شمعة مع باقة الزهر يكتب :

وهيفاءَ من ندماء المـلو ك صفراء كالعاشق المدنف
تكيد الظّلام كما كادها فتفنىٰ وتفنيه في موقف(٤)

ومع باقة من النرجس ، يتعدّىٰ البيتين إلىٰ ثلاثة :

أما ترى النرجس الميّاس يلحظنا لحاظ ذي جذل بالغيث مسرور
كأنّ أحداقه في حسن صفرته مداهن التبر في أوراق كافور
كأنّ طلّ الندىٰ فيه لمبصره دمع تحيّر في أجفان مهجور(٥)

ومع ما نستذكر هنا من قول ابن الرومي ، وقد يكون تعبيره أرقّ وأجمل :

وظلّت عيون الروض تخضلّ بالندى كما اغرورقت عين الشجيّ لتدمعا

فإنّ ما يسترعي الانتباه هو انتقال شاعرنا الناشئ من وصف ألحاظ النرجس لوناً وندًىٰ إلىٰ تذكّر المهجور وما يترقرق في عينيه من دمع . من هو يا تُرىٰ هذا المهجور ؟

ثم يكون أكثر تصريحاً حسّياً في الإشارة عندما يهدي النارنج :

ونارنج تميل به غصون فيغدو ميلها كالصولجان
أشبّهه ثدايا ناهدات غلائلها صبغن بزعفران(٦)

أهل حقاً يشبّه وحسب !

(٤) ديوان الوأواء : ١٤٩
(٥) ديوان الوأواء : ١٢١ ــ ١٢٢
(٦) ديوان الوأواء : ٢٢٨

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

المشهد الخامس ـ العاصفة

وسواء كان يمارس هذا الغزل المقنّع عن حذق تجاري أو لمآرب في نفسه الشاعرة المنساقة ـ في هذه السّن التي أربت على العشرين ـ في أنواء الأهواء الطاغية النزقة ، أكثر من انتظامها في تنامٍ عاطفي هادئ متدرّج ، فإنه ما يلبث أن يؤخذ بحيلته هو نفسه : إذ سرعان ما تستهوي لبّه فتاة في ريعان الأنوثة والخفر ؛ وعت رسائله المبطنة وقد تكون أجابت باللحاظ ما لا يبلغ شأوه التعبير ، وأضاف هو من عنده تخيّلاً سريعاً وقّاداً بتصوّر العيش الوراف الذي ينتظره ، حتىٰ لتستأثر بِحِلْمِه وحُلُمه ، فيصف ليله الذي مال من ثَمّ من الطول إلىٰ القصر :

وليـــل طـويـــل كان لـمّـــا قرنتــه برؤيـة من أهوىٰ قصـير الجوانب
كخفقــة قـلب أو كقبـلة عاشق على حذر أو ردّ طرف المراقب(٧)

ويقوده عنف الهوىٰ من التلميح إلىٰ التصريح ؛ وهاهو فاعل ؛ وإذ ذاك ـ وعلى غير ما توقّع منـه أو استعداد ، يصطدم بنـأي ينتهي بهجر كامل ـ فلا خطـاب ولا حوار ولالِحَـاظ ، فيُهرع وقد اشتملته الخيبـة بجلبابها ، إلىٰ القـلم يبثّ القرطاس على اندفاع وعجـل ، آهتـه العفويّة الصـادرة من القلب ، لا المزوّقة بفنّ الصنعة والقريض ، ينفّس بها روع الصـدمة وقسـوة الإحباط ، متعجّباً من هذا الاستهتار ؛ وتعبير الاستهتار يتردّد في شعره ، وكأنّه يوجز به ما يتخيّل من موقف الآخرين منه ، وسيظلّ هذا الشعور إلىٰ وقت طويل محوراً لشعره ، منبثّ أشكال التلوين في كلّ سانحة منه ، ولن تُفهَم بعض مقطوعاته الصغيرة إلاّ في سياق هذا الهرب من حمأة الواقع إلىٰ موئل الشعر والإفصاح . بل إنّه ليجتمع عليه إلىٰ جانب

(٧) ديوان الوأواء : ٢٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ما يظنّه من « عروس بحره » استهتاراً ، الشكّ في دوافع هذا الاستهتار . أهو نوع من ترفّع مصطنع يخفي في طيّاته شغفاً قصير الحيلة ، وآنئذ يكون له موقف ، أو أنه انقياد طوعاً أو كَرْهاً إلىٰ تقاليد في هذا المجتمع الأميل للمحافظة ، تقاليد تُحلّ المنزلة الاجتماعيّة والماليّة مقام الاعتبار الأوّل فوق العواطف والأهواء . على أنّه مهما كانت الحال ، يبقىٰ ما بقي الهجر ، رهين سقام يعرب عنه بلغة النجوىٰ المباشرة ، يرسلها على تفعيلة البحر البسيط : مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن ، وفيها يستأثر الانفعال بالموقف دون الفعل الذي يبقىٰ معطّلاً . فتأتي أقرب إلىٰ ترنيم ما يحسّ ، منها إلىٰ الإعراب . عما يفكّر أو يصنع ، وتكون مُدخلاً للرسالة التي أرسلها إلىٰ حبيبته وظلّت من بعد مجهولة الأقدار .

لو قيل هل رجل طالت بليّته ... لاستعبرت مقلتي حتىٰ أقول : أنا
ولو قضىٰ حزناً مستهتر دنفٌ ... لكنت أوّل محزون قضىٰ حزنا
هذا كتاب فتىً طالت صبابته ... مكبّلٍ في الهوىٰ وقف لكلّ ضنى(٨)

* * *

هذا ومن باب التداعي في سياق هذا التحسّر الشعري ، وقوامه قلب وهوىٰ ، وأمنية وهجر ، وبلوىٰ وضنىً ، وخيبة مقضيّة ، أو ما تزال يعلق بها بصيص أمل ، وشبح القضاء المخيّم ، القضاء الذي يعني الانقطاع والموت أو العدم .

ذلك أنه ما تغرب عن البال ، في هذا الصّدد ، مقطوعة الشاعر الألماني الأصل الناطق بالفرنسيّة ، بول فرلين ، بعد تسعة قرون من زمن الوأواء ، وفيها الموقف المماثل ، والتعابير المتشابهة ، لولا أن كساها الشاعر

(٨) ديوان الوأواء : ٢٤٠ ـ ٢٤١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الغربي رمزيّة شجرة تنبت عفواً بملء الحرّية ، في مقبرة ، لم تغرسها يد تلفّحت بحداد ، تتهادىٰ أغصانها على طول صخرة بيضاء خاشعة ، يؤمّها صيف شتاء ، طائر يشدو على أغصانها أغنيته الحزينة الأمينة ؛ وما الشجرة والطائر في الرمز إلاّ المتحابّان ، الحبيبة هي الذكرىٰ ،والشاعر هو البيْن ، البيْن الذي يسببه الهجران . آه ! لو أنه يستطيع العيش جاثماً أمام ركبتيها . آه ! وهل يتسنىٰ له العيش ، والعدم يرصده ويتغلب بكل برودة عليه . لو أنها تقول فحسب : أنا أعيش في قلبك ! لأحيت فيه بصيص الأمل .

JL est un arbre au cimetière
poussant en pleine liberté
non planté par un deuil dicté
qui flotte au long d'une humble pierre
Sur cet arbre été comme hiver
un oiseau vient qui chante clair
Sa chanson tristemeut fidèle
Cet arbre et cet oiseau; c'est nous
Toi le souvenir, moi l'absence
Que le temps qui passe – Recense
Ah! vivre encore àtes jenoux
Ah vivre encore mais quoi ma belle
Le néant est mon froid vainqueur
Du moins dis: je vis dans ton coeur.

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المشهد السادس – الشعر والشاعر والأمير

يصل اسم شاعرنا إلىٰ أسماع أمير من أمراء دمشق آنئذ ، شريف النسب بانتسابه لعليّ رضي الله عنه ، هو الشريف العقيقي الذي أوتي بسطة في العلم والمال والجاه والأدب ، يسكن دار العقيق في باب البريد ، وهي القصر الواسع المرموق الذي كان من أجمل قصور دمشق ، يقوم وما يزال حمّام العقيق بجانبه ، يضيف إلىٰ بهاء الجوار هذا الحسّ بالنعمة والترف والطيب الفوّاح . وهي الدار التي سكنها من بعد نجم الدين أيّوب والد صلاح الدين الأيوبي ، ثمّ اشتراها الملك السعيد ، وهدمها وبنىٰ مكانها مدرسةً وضريحاً لوالده الملك الظاهر ، فتحوّلت من بعد إلىٰ مكتبة تحمل اسم الملك الظّاهر ما زالت دمشق حتىٰ اليوم تعدّها من تراثها الثمين .

ويلملم عاشقنا الملتاع ما بقي له من حلم وحكم ، فيفيد من تجربته الأولىٰ درساً يميل به إلىٰ النزول من سدّة المثاليّات إلىٰ أرض الواقع ، فيفكّر ويقدّر ، إذا كان الشعر متنفّساً للعواطف المكبُوتَةِ ، فِلمَ لا يكون أيضاً وسيلة للنجاة من الفاقة ومغمور الذكر ؟ أيضير الشاعرَ أن يسخّر الصنعة التي بذل الجهود الكأداء في سبيل امتلاكها لدرء الغوائل وشقّ الطريق نحو الجاه والثّراء ؟ ويستمدّ شاعرنا من هذه الفكرة العزم على نظم جزء من قصيدة في مدح الشريف العقيقي ؛ وماله لا ينظم في المديح وقد تحصّلت في أدبيات العربية مجموعة وافرة من تقاليد مدح الخلفاء والملوك والأمراء موضوعاً ومفردات ، تشابيه واستعارات ، تنظيما لتركيب قصيدة المدح STRUCTURE وتنسيقاً لأجزائها COMPONENTS حتىٰ تأتي كما كان يقال كالبنيان المرصوص COHESIVE CONSTRUCTION .

وإذا كان ما يبغيه من الأمير هو النّوال ، فليركّز على كرمه تحريضاً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لنخوته ، وليقل إنّ المعجب به ينساق انسياقاً إلىٰ داره ، يدلّه عليهاالقلب والشوق ؛ وليدلّل على أنّ الكرم طبيعة أصيلة فيه ، تظهر معالمها في راحتيه بل في أنامله . ولْيَقرِن كرم الأمير ببشر محيّاه ، ينشر الابتسامة حيث حلّ فما يبقىٰ موضع لبكاء ؛ وحتّىٰ إذا قابل وجهه أغصان البخل أثمرت وأنتجت من كلّ زوج بهيج . وليبالغ المبالغة المحبّبة لأسماع الحكّام والأمراء ، فيجعل الغيث المدرار الذي يحيي الأرض متخلفاً في الكرم عن غيث الأمير الذي إنما يحيي النفوس .

كم قد تديّر قلبي من دياركم ... داراً فما سئمت منه ولا سئما
ثنيته وعنان الشوق يجمح بي ... إلىٰ الذي راحتاه تنبت النعما
إلىٰ الّذي افتخرت أرض العقيق به ... ومن به أصبحت بطحاؤها حرما
إلىٰ فتىً تضحك الدنيا بغرّته ... فما ترىٰ باكيا فيها إذا ابتسما
لو أنّ للبخل أغصاناً وقابلها ... بوجهه أنبتت من وقتها كرما
أزرىٰ على الغيث غيث من أنامله ... في روضة الشكر لمّا بجّل الديما

ولنمعن قليلاً في تحليل هذا النموذج من قصائد المدح لنتبيّن منحىٰ شاعرية الوأواء . فإذا كان مدح الكرم في سعي الشاعر هو الأداء للوصول إلىٰ ما يرجو من عطاء فلتجتمع لاستكمال حوافز هذا الكرم لدىٰ الأمير صفات يحبّ الأمراء أن يتصفوا بها ، سواء كانت أصيلة فيهم أم وهميّة يتوهّمونها ويتوهّمها مدّاحوهم : من شجاعة وإقدام ، في خدمتها سيوف ماضية قاطعة ، ومن استخفاف بالردىٰ وتحدّ للمنايا حتّىٰ لتأتي هي للبطل تنشد الأمان ، ومن سموّ إلىٰ مراتب المروءة والشرف إلىٰ إشادة لصروح المجد :

سما به الشرف السامي فصار به ... مخيّماً فوق أطباق العلى خيما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ما إن دجا ليل نقع في نهار وغىٰ ... إلاّ وأمطره من سيبه نقما
تأتي المنايا إلىٰ أسيافه فِرَقاً(*) ... كأنما تجتدي من خوفه سَلَما
لا يخطر الفرّ في كرّ بخاطره ... ولا يؤخر عن إقدامه قدما
كم قال خطب الردىٰ فيما ينازله ... هذا الذي لو رمي بالدهر ما انهزما
هذا الذي لا يُرىٰ في جيد مكرُمة ... عقد من المجد إلاّ باسمه نُظِما

ويجد شاعرنا الحيلة في تسريب خبر القصيدة إلىٰ الشريف ، لكنّ الشريف على ما يبدو ، شأنه في ذلك شأن أيّ أمير من أمراء هذا العصر ، يحبّذ عدم التسّرع في الجواب ، إمّا لاستجماع البحث عن طلب اللقاء أوّلاً ، أو لاصطناع الترفّع وعدم الاكتراث ، أو لتجنّب الظهور بمظهر المتهافت على المديح ، على اعتبار أنّ فِعاله السامية ناطقة من نفسها لاتحتاج إلىٰ من يشيد بها ، فيسوّف في طلب الوأواء .

مرّة أخرىٰ تصطدم أحلام شاعرنا بالتعثّر ، لكنّ التجربة علّمته ألاّ يركب مركب التهيّج أو التهّور ، فيلجأ للشعر لا لبثّ الحزن ، بل لتسخير الحنكة والمهارة لبلوغ أغراضه .

المشهد السّابع – الشّاعر في مواجهة الأمير

وإذ كان شاعرنا على مثل اليقين أنّ الأمير ، آخر الأمر ، حريص كلّ الحرص على الاستماع لقصيدته فإنه يسارع فيجعل لها استهلالاً بارعاً ، لا ببكاء على طلل كما كان يفعل شعراء البادية في حنينهم إلىٰ أماكن أمّوها وكانت لهم فيها ذكريات عذاب ، ثمّ اندرست وعفت منها الرسوم ، بل بتظلّم من عنت الحياة في المدينة ، وتموّج الأهواء ، وتقلّب الأصحاب بين العرفان والنكران ، حتّىٰ إذا آب الخِلُّ المجافي إلىٰ حساب الضمير ، تورّد

(*) أو فَرَقاً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

خدّاه خجلاً ممّا أظهر . وينسب شاعرنا ذلك في الظاهر للحبيب – فيما يغمز في حقيقة الأمر بالتورية من تصرّف الأمير ، وهو إذ ذاك يصيب بحذقه هدفاً مزدوجاً ، إذ يبدو وكأنه يجلّ الأمير عن مثل هذا الظلم ، وكأنه يريد مقدّماً حجبه عن أن يقع ثانية فيه ، وأن يكون أسرع لإيصاله في النهاية إلىٰ مبتغاه .

فلنتأمّل الشعر النابض بالشعور ، الناطق بالصور المجسّمة بالجناس والطباق ، في الريّ والظمأ ، والروع والترويع ، والحزن والسرور ، والظلم والتظلّم ، البالغ التعبير في كل كلمة وكلّ تشبيه ، في كلّ عتب وكلّ تشبيب :

تظلّم الورد في خدّيه إذ ظلما ... وعلّم السُقم من أجفانه السَقما
ولم أرد بلحاظي ماء ناظره ... إلاّ سقىٰ ناظري من رِيّه بظما
أسكنت من بعده صبري ثرىٰ جزعي ... فمات فيه ولم أعلم بما علما
ما سوّد الحزن مبيضّ السرور به ... إلاّ وديّم دمعي فوقه دِيما

ومع ذلك يقسم الولهان ، بدمعته الممتزجة بالدم من التولّه ، وبدمعته الصافية الرقراق الممتزجة برحيق الأمل ، ألاّ يخفت البينُ جذوة حبّه ، ولا ينزلق اللّسان في حكم قاس على حِبّه ولو أعرض :

أما وأحمر دمعي فوق أبيضه ... وما بنىٰ الشوق من صبري وما هدما
لا رعت بالبين منه ما يروّعني ... ولا حكمت عليه بالذي حكما

وكما ترك شاعرناالقلب يتكلّم في مطلع الاستهلال ، ترك العين المبصرة الدقيقة الملاحظة تجمع العَتاد لتزوّد به ريشة الفنّان الماهر يرسم في متن الاستهلال أنواء الطبيعة يوم أمّ قصر الأمير ليقلي قصيدته . فقد كان يوم ظلمة داكنة ، تتجمّع السحب في سمائه وما تتفرّق إلاّ لتتجمّع ثانية فكأنها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تتململ ، ولكنها تحجب الشمس ، فيما يهمهم الرّعد ويهمي الغيث ، فيضفي كلّ ذلك على الطبيعة عبوساً يتباين مع ضاحك الأمل الذي بناه الشاعر على لقاء الأمير ؛ وكأنّه يقول له إنّ العطاء سيبدّد العبوس فيصل ما انقطع من تطلّعاته وينظم ما انتثر من أحلامه ! وكأنه من جهة أخرىٰ يدلّل على براعته في رسم عواصف الطبيعة مثل براعته في وصف عواصف النفس ، كي يدرك الأمير أنه أمام شاعر من الفحول لا تقاس منزلته بعدد سنيّه :

ويوم دجن أراق الغيم رائقه ... كأنما شمسه مكحولة بعمىٰ
تململت سحبه من طول ما سحبت ... وهمهم الرّعد منها فيه حين همىٰ
بكىٰ عليه الندىٰ ليلاً فعبّس لي ... ما كان لي في نهار منه مبتسما
لا زال منقطعاً ما كان متّصلا ... منه ومنتثراً ما كان منتظما

لكنّ الأبلغ هو ما اختتمت به القصيدة ، إذ يهبط الشاعر في الإطراء بصفات الأمير السامية من عموميّة التجريد إلىٰ خصوصيّة الوقائع الاجتماعيّة الصّارخة فيجعل محكّ عظمة الأمير مقدار ما يؤمل على يديه من نشر الأمن وحماية المستغيث :

ذر الصوارم في أغمادها فلقد ... أمست نفوس المنايا في حماه حمى

وما يعوّل عليه من إسعاف للملهوف الثليم الفؤاد :

لا والهوىٰ وحياة الشوق ما تركت ... لي النوىٰ من فؤادي غير ما ثلما
متىٰ تحكّم هجري في مواصلتي ... جعلت أحمد فيما بيننا حكما[٩]

وأخيراً ، وهنا بيت القصيد ، وبكلمات وافية التعبير ، وأسلوب قد

(٩) ديوان الوأواء الدمشقي : ١٩٤ – ١٩٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لا يفوقه أسلوب في الإيجاز والإحكام ، وقد يكون من نوع التعجب الأدنى ما يكون إلى مسحة السخرية المستترة :

هذي يمينك في الآجال صائلة فاقتل بسيف رداها الفقر والعدما

وكأنه يقول للأمير : إذا كنت حقاً على مثل القدرة التي أصف ، في إخضاع الجيوش والمنايا ، فليقم البرهان على هذه القدرة بإخضاع خصم أهون أمراً وأقرب منالاً : اقتل الفقر والعَدَم عند مستهترٍ مثلي هو من رعاياك يشكو أمره بين يديك .

المشهد الثامن – تهافت الثواب وتفاقم الاكتئاب

يخلو الأمير إلى ندمائه بعد ما يشير على الشاعر بالانتظار ، فيتداول معهم أمر العطاء ، فواحد يرى في القصيدة خلطاً عجيباً بين لحاظ محبوب لكنّه يصدّ ، وسحاب ممطر لكنّه داكن العبوس ، وكثرة بديع في مدح الأمير كأنّ صفاته العظيمة بحاجة للتزويق ، وجَهْرٍ بطلب العطاء ممّا لا يفعله ذو كياسة .

يفكر الأمير هنيهة ثمّ يسائل نديماً آخر ، فيشير هذا بعطاء محدود يكافئ جهداً في النظم ، فيه دقة أوصاف ، وحسن تشابيه ، وتجلّ لبعض صفات الأمير . وينتهي الأمر بالأمير أن يأمر للشاعر بعشرين ديناراً على حين كان خيال الشاعر يسبح في أوهام ما يروى عن الأمراء ، هذا يأمر لمادحه بألف دينار وذاك بألف ألف درهم ؛ هذا يسوق له المال الضخم والمتاع الجمّ ، وذاك يقطعه الأراضي والدساكر . فينصرف الشاعر بين شيء من الرضى وقدر من خيبة الطموح ، وتكاد الخيبة أن تتغلّب لولا أنّ صاحبين له من كبار مدرّسيه ممّن قدّروا حق القدر شعره ونبوغه وعصاميّته يهدّئان من روعه ويزيّنان له موقف الأمير ، إذ رضي بلقائه وكان بإمكانه أن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يرفض ، وأنعم عليه ولو بقليل وكان بإمكانه أن يحجم ، ويذكّر انه بأشعار له هو كان يمدح بها أحد الوجهاء وكان قد أهداه بغلة ليستعين بها على حمل بضاعته فيقول له فيما يقول :

ليست بأوّل حُملانٍ شريت به حمدي ولا هي ياذا الجود آخرُه[١٠]

فلِمَ لا يعتبر دنانير الأمير أوّل الغيث ، يبدأ قطرة ثم ينهمر ؟!

ويجنح الشاعر في قرارة نفسه إلىٰ التساؤل : حقاً لِمَ لا أعود إليه ، وهو الأمير ، وقد عدتُ من قبله إلىٰ من هو أدنىٰ منه رتبةً ، خافض الجناح ألتمس مزيداً من متعة ومتاع ، ألست أنا القائل :

عاد وكم قال : لا أعود كأنّما وعده وعيدُ
أحسنَ ما نحن في وصالٍ يعرِض ما بيننا الصدود
وكم تجلّدت لا لأني على عذاب الهوىٰ جليد
لكنني طالب رضاه وهكذا تفعل العبيد

ألا ما أشدّ ما تفعل الحاجة !

فيحمّل مدرّسيه ، في ألوكة لهما ، أمانة الشفاعة عند الأمير ، لعلّه يتيح له فرصة أخرىٰ للقائه ، مستذكراً في هذا السّياق ، ما كان قاله في خِلٍّ كان قد أحسن للشاعر ثمّ انقطع عنه :

بالله ربّكما عوجا على سكني وعاتباه لعلّ العتب يعطفه
وعرّضا بي وقولا في كلامكما ما بال عبدك بالهجران تتلفه
فإن تبسّم قولا عن ملاطفةٍ ما ضرّ لو بوصال منك تسعفه
وإن بدا لكما من سيّدي غضب فغالطاه وقولا « ليس نعرفه »[١١]

(١٠) ديوان الوأواء : ٢٧١

(١١) ديوان الوأواء : ١٤٦ – ١٤٧ ، السكن : كل ما سكنت اليه واطمأننت به من أهل وغيره .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

منتهىٰ الدبلوماسية الدمشقية !

وعندما وافاه صاحباه بقبول الأمير أن يتلقىٰ قصيدته الجديدة دونما حاجة للقاء وجه لوجه ، طفق الشاعر من فوره ينظم قصيدته الثانية ، يتجنّب فيها ما أخذ عليه – وما هو ليس على اقتناع بأنه من المآخذ – فيعود في الاستهلال إلىٰ عوائد القدماء ، يبكي الأطلال ، ويُدرج أيام الصبوة في خزانة الذكريات ، لا في عنفوان التشوّق ، لكنّه لا يهجر البديع في أشعاره وهو الأداة التي تضفي على شعره النغم والرونق ، لايأبه بما يقول نديم : ناقداً كان أو حاسداً .

لِمَنِ الرسومُ بـ « رامتين » بلينا ... كسيت معالمها الهوىٰ وعرينا
دِمَنٌ فطمن من الصّبا وتبدّلت ... حركاتهنّ من الغرام سكونا
واهاً لأيام الربيبات التي ... فيها نحِلُّ نوىً ونعقد لينا
أفلت كواكب صبوتي بأفولها ... فلو انّ أياماً بقين بقينا
تفنىٰ مدامعنا ومـ نفنىٰ بها ... فكأنها سخطت لما يرضينا
مترسّمات بالرسوم تخال في ... ألوانها ممّا بنا تلوينا

ثمّ يلج باب المدح :

حتّىٰ لقد ضمنت لأحمد عَنوةً ... أن لا يزالَ على الخطوب معينا
كرم تمكّن فيه حتىٰ لم تدع ... أوصافه لتكرّم تمكينا
قد أورقت منه الظنون وأثمرت ... نيلا يظلّ الشكّ فيه يقينا
يهتزّ للجدوىٰ اهتزاز مهنّدٍ ... أبلت مضاربهُ الغداة جفونا
كالشمس حسنا والحسام خشونة ... والمزن جوداً والأراكة لينا

وانظر من ثمّ إلىٰ الاستعطاف الرقيق ، بعد هذه المبالغات الجزلة :

يا مسقماً بالبذل صحة ماله ... فينا وهادمه بما يبنينا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أينعتَ لي في نبعتي ورق الغنىٰ ودفعت عني باليقين ظنونا
وكسوتني والمكرمات تقول لي افخر بأنك مذ كسيت كُسينا
فاسلم فإنك ما سلمت من الردىٰ وسقيت من ماء الحياة سقينا[١٢]

ويأتي العطاء هذه المرّة على ما يبدو مدّاً من قمح وشرعة من عسل ، على الرغم ممّا أومأت القصيدة إيماء إليه من أنّ الحاجة هي إلىٰ الكساء ، فيقدّر الطالب حسن اللفتة دون أن يجد فيها سداداً للبّ الحاجة . فيجرؤ أخيراً على التصريح ويرسل قصيدة أخرىٰ يختمها بالمفاتحة التامة فيذكر على التخصيص ما هو بحاجة إليه :

يا أبا قاسم أزالت عطايا ك صعاباً من الخطوب الصعاب
بخل الباخلون عنّا فأمطر ت لنا نائلا بغير سحاب

ثمّ يصوّر له بلغة الواقع المؤلم ، بعيداً عن الزخرف ، وبعيداً حتّى عن البديع الذي تكمن فيه نفحته الشعريّة – حاجته لثياب – لا لقمح وعسل ثياب تستر فقره وترفع عنه مذلّة الاستهتار :

حالتي تقتضيك دون اقتضائي أن يكون الثواب دست الثياب
كلّما لامني خبيث بعتب قام لبسي له مقام الجواب
فتبيّن عنوان حالي فالعنـ ـوان ينبي بكلّ ما في الكتاب
وإحيائي من العيون إذا ما عانيتني في هذه الأسلاب
يقطع العضب إن نبا عن قليلٍ ويعود الهلال بعد الغياب[١٣]

ولو أنّ الشاعر لقي بعد هذا التذلّل المفرط جواباً شافياً لما أمّ فيما بعد بلاط سيف الدولة في حلب مادحاً عسىٰ أن يفوز باهتمام أكبر لدىٰ آل

(١٢) ديوان الوأواء : ٢١٤ – ٢١٩
(١٣) ديوان الوأواء : ١٥ – ١٦ ، والعضب : السيف .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

حمدان ؛ ولو أنه لقي من سيف الدولة – بعد ما كال له المديح كيلا ممّا لا يتسع الوقت للخوض فيه – لو أنه لقي نزراً يسيراً ممّا كان يتوقع لما تندّم على رحيله ولما كتب إلىٰ خِلاّنه ما يؤذن بشجاه وينبئ بقرب عودته :

عليل القلب والبدن بعيد الدار والسكن
بكىٰ وشكا تشتته عن الأحباب والوطن
ومن أعطىٰ أزمّته بلا منع يد الزمن
فذاك يبيع لذته من الدنيا بلا ثمن(١٤)

وجليّ في ختام هذه الدورة من السعي والإخفاق ما سوف ينبئ به هذا المعنىٰ الأخير : بيع اللذة بلا ثمن ، ما ينبئ به من تحوّل ينتظر الشاعر إذ يوقن أنّ من العبث تفويت ملذّات الحياة الآنيّة والجري وراء سراب من الطموحات لا وصول فعليّاً إليه .

المشهد أو الموقف التاسع – عشيّة لذة الدنيا

شاعرنا في طريق عودته إلىٰ دمشق ، تجول في خاطره رؤىٰ العهد الجديد الذي صحّ عزمه أن يقبل عليه من مرح ومسرّة ، ولذّة ولا مبالاة ، وإذ يتأتّىٰ له الوقوف في حماة فإنه يزور نواعيرها ، فتبرز له رمزيّة التّداعي بين حاله وحالها : عطاء ثرّ يسقي الرياض فيما لا يُجتنىٰ إلاّ الحزن والدمع والجزع ، تزيد في روعه ما تتقلب دمشق فيه من محن ، وكأنّ ذلك مقدور قدراً لا حيلة فيه ، في فلك دوّار يرمي بالنجوم الطوالع إلىٰ القرار .

فيقول في النّاعورة :

وكريمةٍ سقت الرياض بدرّها فغدت تنوب عن السحاب الهامع
بلباس محزون ودمعة عاشق وحنين مشتاق وأنّة جازع

(١٤) ديوان الوأواء : ٢٤٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فكـــأنهـا فـلك يـدور وعُـلوُه   يرمي القـرار بكـلّ نجم طالع[١٥]

ويضمّه تلك الليلة مجلس طرب ، يؤمّه بين الفينة والفينة أصحاب له من النّازحين عن دمشق إلىٰ حمص أيام اقتتال أبي محمود الفاطمي مع القرامطة فيظلّ متأثراً بما توحي به النواعير من رمز العطاء الذي يقابل بالجفاء وحتميّـة الأقدار التي تنزل بالضعفاء ؛ حتّىٰ إذا تبدّت له « عروس من عرائس العاصي » تملّكت الأرواح بغنائها العذب وإيقاعها الأنيق ، وتملّكت الألباب برصـانة خِطّتهـا ودماثة شخصيتها ، وفاتحة أصحابه بالتودّد لها تسريحاً لاكتئابه ، وإنشادها تنفيساً لآهاته ، وصفّق الحفل ملحّاً عليه أن يتصدّر المسرح ، أنشد مرتجلاً :

لها حكـم لقمـان وصورة يوسف   ونغـمـــة داوود وعفـــة مـريم
ولي سُـقْـمُ أيّوب وغربـة يونس   وأحـزان يعقـوب ووحشـة آدم[١٦]

* * *

المشهد العاشر ـ اقتناص اللّذة

وما كاد يستقرّ به المقام ثانية في دمشق حتى يجد نفسه أكثر تجاوباً مع أشعـار أبي نواس ونزوعه إلىٰ اللذّة يجدها في الإدمان على الشراب والمجون ، تناسياً للهموم وإسكاتاً للعواطف الصّارخة وسلوّاً عن الإخفاق . فيقضي أمسياته في الحانات عوضاً عن مجالس العلم ، يتجرّع لذة الشراب ، والغناء والرقص والمؤانسة ، تفرّج عنه أزمته وتسليه عن فقدان خير أعزّائه الذين ذهبوا ضحـايا الفتن والحروب والأرزاء ممّا حلّ بدمشق وبأهليها الأبرياء .

(١٥) ديوان الوأواء : ٢٧٤ ـ ٢٧٥

(١٦) ديوان الوأواء : ٢٧٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فيتّجه شعره نحو الخمريّات ، وصفاً لكؤوسها ونقائها أو مزجها ، ونشوتها وسريانها سريان الروح في الجسم :

هي الحياة فلو تأتي إلى حجرٍ لولّدت فيه منها نشوة الطرب
كأنها ولسان الماء يقرعها دمع ترقرق في أجفان منتحب
إذا علاها حباب خلته شبكاً من اللجين على أرض من الذهب[١٧]

كما يتجه نحو التغنّي بمحاسن العشيقات والجواري والغلمان :

قالت وقد فتكت فينا لواحظها كم ذا ؟ أما لقتيل الحبّ من قَوَدِ
وأمطرت لؤلوا من نرجس وسقت ورداً وعضّت على العنّاب بالبَرَد
وخصرها ناحل مثلي على كفَلٍ مرجرج قد حكى الأحزان في الخَلَدَ
إنسيّة لو رأتها الشمس ماطلعت من بعد رؤيتها يوماً على أحد[١٨]

حتّىٰ إذا دارت في الحانات العريقة حمّى الشراب في الرؤوس ، واختلط الأمر

بين ساقٍ وسامرٍ ومغنّ وزامر[١٩]

قام صاحبنا ، مترنّحاً ، يرتجل مقطوعة النشوة بالكاس والإحساس ، يبوح بما لا يباح عادةً به ، فيختلط معناه بالنغم الشجي ، لا يزيده التقطع من جرّاء النشوة إلاّ وقعاً وتأثيراً :

باح بما قد كتما لمّا جرى الدمع دما
رماه ريم فأصا ب القلب منه إذ رمى
واحتجّ في قتلته بأنه ما علما

(١٧) ديوان الوأواء : ٣٨ – ٣٩
(١٨) ديوان الوأواء : ٨٣ – ٨٥ وانظر : ٢١٥ – ٢١٧ .
(١٩) ديوان الوأواء : ١٠٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يا معشر الناس أما ينصفني من ظلما
علّم سقم طرفه جسميَ منه سقما
فسقم جسمي في الهوى من طرفه تعلّما
لو قيل لي ما تشتهي مخيّراً محكّما
لقلت أن ألثمه نحراً وخدّاً وفما
قالوا له بأنه في هجره قد أثما
حلّل في هجرانه لي في الهوى ما حُرّما
كم عاشق قابله يبكي عليه ندما(٢٠)

ويهتاج القوم ، ويخرج الشاعر الثمل الذي ارتجل-على هذا النحو مجزوء الرجز بالجوائز وقد أصبحت كلّ ما بقي له من مورد مع ما ينظم للعاشقين يستميلون به أحباءهم ، وللمقاهي تصدّر به لوحاتها التشويقيّة .

* * *

لكنّه يقترب بسرعة من حافة الشيخوخة المملوءة بالثكل والسّقام ، فيما يحسب وهما طالما كان ثملا أنه حليف النعمة مرموق المُقام .

المشهد الحادي عشر ــ التوبة النصوح

وتزلّ به القدم ــ كما زلّت به الأوهام ، ويستأثر النقرس بحركاته وسكناته ، ويعتبر بوفاة أصحابه واحداً بعد الآخر ، لا يخلّفون وراءهم من متعة أو متاع إلاّ ذكراً طيّباً إذا طاب الذكر ، وعملاً صالحاً إذا صلُح العمل ، فتدمع منه العين ، وينهض متحاملاً على نفسه ليؤدّي واجبه في عبادة الله . وفي هدأة من التأمل والخشوع ، ينهي نظم القريض ، كما تنتهي من بعد حياته المضطربة ، بهذه الأبيات يدعو فيها خالقه عسى أن

(٢٠) ديوان الوأواء : ٢٠٤ ــ ٢٠٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يستجيب لاستغفاره ، إيماناً بالآية الكريمة « ادعوني أستجب لكم » :

اللهُ يعلم أني هائم قلق — عليّ ثوبان من ضُرٍّ ومن سقَم
وقد ندمت على ما كان من زللي — وأنت أعظم من يرجى من الأمم
فاغفر لعبدك يا مولاي زلته — أو لا فحكمك فينا غير محتكم[٢١]

ولقد كان استعطافه الوجهاء بالأمس مشوباً بشيء من مهارة الحيلة والحذق ؛ لكنّ اعترافه بالزلة اليوم وانصياعه لحكم الله يأتي الآن تاماً مطلقاً مليئاً بالصدق منيراً بالتوبة النصوح .

* * *

وبعدُ ، فلقد كان الوأواء شاعر الحياة ، الحياة التي يقول فيها كاتب فرنسيّ إنها ملهاة لمن يفكّر ومأساة لمن يشعر :

La vie est une comédie pour l'homme qui pense et une tragédie pour l'homme qui sent

وقد كان الوأواء شاعراً ومفكراً معاً ، ولهذا جاء شعره مزيجاً من الملهاة والمأساة : يطرق باب المدح فيمدح المُثُل ، فيما يتظاهر بمدح ذوي الجاه ؛ ويطرق باب الرثاء ، فيرثي تهافت المُثل على أرض الواقع الأليم ؛ ويطرق باب الوصف ، فيصف جمال الطبيعة وعبوسها ، وفرحة الحبّ وعنته ؛ كما يصف الطباع : الكريم منها وغير الكريم ؛ بريشة رسّام متمعّن ساخر معاً ، متأنٍّ لاه معاً . ويجد في بعض لذائذ الحياة مهرباً من اكتئاب يلازمه ، وأسىً يحزّ في نفسه .

وهو في تعبيره عن هذا وذاك ، يهدي الأجيال تراثاً عربياً بيّناً شيّقاً

---

(٢١) ديوان الوأواء : ٢٠٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

رشيقاً أخّاذاً ، مثيراً للعواطف والشجون ، موسيقيّ النغم ، بديع الانسجام مرآة للعصر الذي عاش فيه بسرّائه وضرّائه ؛ غنيّاً بالمفردات المصطفاة من هذه اللغة العربية الفيّاضة بالاشتقاق والبلاغة والجمال .

فلا عجب أن يقول فيه الثعالبيّ : « وما زال يشعر حتىٰ جاد شعره ، وسار كلامه ، ووقع فيه ما يروق ويشوق ويفوق حتىٰ يعلو العيُّوق »[٢٢] .

(٢٢) العيُّوق : نجم أحمر مُضيء في طَرَف المجرَّة الأيمن ، يتلو الثريّا لا يتقدَّمها . القاموس (عوق) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net